الفصل السابع

إشكالية الوعي التاريخي العربي في المرحلة الراهنة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع

إشكالية الوعي التاريخي العربي في المرحلة الراهنة

مدخل للتعريف بمفاهيم الوعي التاريخي في عصر العولمة :

تطورت المقولات العلمية الدالة على الوعي بالتاريخ العالمي بشكل بارز منذ بداية عصر التنوير الأوروبي إلى المرحلة الراهنة التي تتميز بهيمنة العولمة الأميركية على التاريخ الكوني. وتميزت المقولات التاريخية لعصر التنوير بالعمل على إطلاق مفاهيم نظرية جديدة تؤسس لوحدة التاريخ الكوني كالدولة القومية، والاستقلال، والسيادة الوطنية، والخصوصية القومية، والحريات الشخصية والعامة، والنظم والدساتير، والمساواة بين الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم، ومبادئهم السياسية، والعدالة الاجتماعية، وتطبيق الليبرالية في المجال الاقتصادي، والديمقراطية السليمة في المجال السياسي، والتعددية والانفتاح على العلوم العصرية والتقدم التكنولوجي في المجال الثقافي، وغيرها. تكمن أبرز الإنجازات النظرية لتلك المرحلة في عملية الانتقال من التاريخ الإيديولوجي إلى علم التاريخ. إلا أن الحقبة الأميركية الراهنة من عصر العولمة تتسم بالعودة مجددا إلى تبني "فلسفة القوة" للهيمنة على العالم وإلى التاريخ المؤدلج الذي يبنى على مقولات "نهاية التاريخ"، و"صراع الحضارات"، وتقسيم دول العالم إلى "محور الخير ومحور الشر". على المستوى العملي، تميزت سيرورة التاريخ العالمي عبر تجلياتها في التاريخ الحديث والمعاصر بتفكك الإمبراطوريات الكبرى وظهور الدولة القوم، وبروز ظاهرة الاستعمار، وتحول بعض الدول القومية القوية إلى دول إمبريالية.وبرز صراع حاد بين الإمبرياليات قاد إلى الحرب العالمية الأولى التي مهدت لانتصار الثورة الاشتراكية في روسيا، وقيام عصبة الأمم في مؤتمر "فرسايل" في فرنسا بهدف إدارة التاريخ العالمي، ومنع تجدد الحروب العالمية. لكن أعمال تلك العصبة جاءت مخيبة للآمال المعقودة عليها. فقد

شهد العالم بين الحربين العالميتين هزيمة ساحقة لكثير من الأنظمة الديمقراطية في مواجهة الأنظمة التوتاليتارية في أوروبا، وصعود للأنظمة الفاشية، والنازية، والديكتاتورية.

نتيجة لذلك انفجرت الحرب العالمية الثانية، وقادت إلى نتائج مأساوية أشد هولاً ودماراً بالقياس إلى نتائج الحرب السابقة. وفي نهاية تلك الحرب دخل التاريخ العالمي مرحلة من الحرب الباردة التي شهدت ولادة الأمم المتحدة لإدارة الصراع بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي، والعمل على تلافي حرب عالمية ثالثة بكل الوسائل الممكنة لأنها تقود إلى تدمير شامل للعالم كله. ثم ظهرت تباعا تكتلات جغرافية وعسكرية كبرى منها الاتحاد الأوروبي، وحلف الناتو، وحلف وارسو. ومنذ الإعلان عن نهاية الحرب الباردة عام ١٩٨٩م، بهزيمة الكتلة الاشتراكية، يحاول الأميركيون التأسيس للعصر الأميركي، وذلك بالسيطرة المباشرة على التاريخ الكوني، وبالقوة المسلحة. فبرز صراع علني على الأمم المتحدة، وتحاول الديمقراطيات الغربية إثبات الصفة الإنسانية لمقولاتها في مواجهة النزعة العسكرية المتزايدة للديمقراطية الأميركية.

أما على المستوى النظري فقد حفلت القرون الثلاثة الماضية بولادة وعي حقيقي بأهمية التاريخ العالمي انطلاقا من تبلور مقولات تاريخانية تشدد على ضرورة التركيز على وحدة هذا التاريخ. فقد بشر الفيلسوف الألماني هيغل بمقولة "نهاية التاريخ"، الفيودالي الأوروبي القديم بعد نجاح الثورة الفرنسية، ومقولات فلسفة عصر الأنوار في قيادة الغالبية الساحقة من الدول الأوروبية، وتغيير أنظمتها من الملكية أو الديكتاتورية المطلقة إلى ملكية مقيدة، وإلى أنظمة ديمقراطية تستند إلى دساتير مكتوبة على أساس أن الشعب وحده هو مصدر جميع السلطات.

وعندما دعا الفيلسوف الألماني "فيورباخ"، بمادية حتمية تحدد مسار التاريخ العالمي رد عليه كارل ماركس، بنقد الحتمية انطلاقا من مادية

جدلية تحدد العلاقة ما بين البنى التحتية والبنى الفوقية التي تتولد عليها قوانين الصراع الاجتماعي، ومعها قوانين التطور في العالم. وطور "ماكس فيبر" مادية ماركس الديالكتيكية إلى باراديم، أو النموذج التاريخي القابل للتحقق على أرض الواقع. وانتقد التفسير الاقتصادي الوحيد الجانب للتاريخ العالمي، وأولى أهمية استثنائية لشرعية الدولة، وكاريزما القيادة السياسية، وأهمية العامل الثقافي في العلاقات الدولية. أما فرنان بروديل، فقد أسهب في وصف تجليات الزمن التاريخي الذي ينقسم إلى ثلاثة أزمنة متداخلة: التاريخ الحوادثي الانفعالي، أو الزمن السريع التغير، وهو زمن الأفراد، والتاريخ الاجتماعي المضطرب والمتبدل باستمرار، وهو زمن الجماعات، والتاريخ الحضاري البطيء، والعميق، والهادئ، وهو التاريخ الشمولي، أو الكوني، أو الإنساني وفيه يتجلى زمن الحضارات.

على قاعدة تلك المفاهيم النظرية المعمقة تحولت الأبحاث العلمية من التاريخية أو الوعي بمقولات التاريخ الوضعي، إلى التاريخانية أو الوعي بمقولات التاريخ العالمي على أسس نظرية وفلسفية. وشدد الباحثون في التاريخ العالمي على جدلية الإنسان والطبيعة، الماضي والحاضر، القوانين الوضعية ودور الإنسان في تغيير ذاته ومجتمعه، جدلية البناء التحتي والبناء الفوقي، التراكم الكمي، والتراكم النوعي، التاريخ الفرعي أو الإقليمي، والتاريخ الشمولي أو الكوني.

في النصف الثاني من القرن العشرين نشر المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي، نظرية بالغة الأهمية حول "التحدي الحضاري"، أو "التحدي والاستجابة"، بعد دراسة عميقة ومفصلة لإحدى وعشرين حضارة عالمية شهدتها البشرية عبر مختلف العصور. ودعا إلى احترامها جميعا، وتوظيفها لبناء حضارة إنسانية كونية تتلاءم مع طبيعة التاريخ العالمي. ومؤخراً، برز نزوع متزايد لدى عدد كبير من المؤرخين العالميين يهدف إلى تجاوز الدراسات الأمبيريقية البنيوية باتجاه علم كوني جديد هو الأنثروبولوجيا الثقافية.

وتمت تعرية مقولة "التاريخ بوصفه إيديولوجيا وليس علما"، التي طبقتها الأنظمة الشيوعية، والنازية، والفاشية، والقومية، بأشكال متنوعة، وطبقا لمصالح كل منها. لكن تلك المقولة عادت بقوة منذ نهاية الحرب الباردة. فبرزت مجددا مقولات التاريخ المؤدلج في عصر العولمة الأميركية. وتم تشويه مقولات هيغل التاريخية، بشكل متعمد على يد فرنسيس فوكوياما في كتابه "نهاية التاريخ". وشوهت مقولة توينبي العلمية، حول "التحدي والاستجابة"، بشكل متعمد أيضا على يد صموئيل هاتنغتون، في كتابه "صراع الحضارات".

ووظفت تلك المقولات المؤدلجة وغير العلمية في خدمة آلة الحرب الأميركية التي تبنت، وبشكل علني، مقولة "فلسفة القوة"، كعامل حاسم لبناء التاريخ العالمي تحت القيادة الأميركية الوحيدة الجانب. نتيجة لذلك بات مؤرخ ما بعد الحداثة اليوم أسير انحراف حاد عن مسيرة التاريخ العالمي بالمفهوم الإنساني لمقولات "عصر الأنوار" الأوروبية، إلى التاريخ المعولم أميركيا.

نخلص إلى القول بأن مسيرة التاريخ العالمي من عصر الأنوار إلى بداية التاريخ المعولم أميركيا قد مرت بثلاث مراحل أساسية وبارزة:

الأولى: مرحلة الإمبراطوريات الكبرى.

الثانية: مرحلة المركزية الأوروبية منذ أواسط القرن التاسع عشر، وحتى أواسط القرن العشرين.

الثالثة: مرحلة المركزية الأميركية التي بدأت في أواسط القرن العشرين وهي مستمرة بقوة في مطلع القرن الحادي والعشرين (From Pax Europeana to Pax Americana) على جانب آخر تشير الدراسات العلمية إلى خصوصية تجارب التحديث الآسيوية: في اليابان، والصين، ودول النمور الآسيوية، والهند. ويتوقع بعض الباحثين أن يبرز لاحقا تحول مهم في مسيرة التاريخ العالمي من العصر الأميركي إلى العصر الآسيوي: (From

Pax Americana to Pax Asiana) تؤكد هذه اللوحة المكثفة جدا أن الوعي بمسيرة تطور التاريخ العالمي من فلسفة التاريخ الإنساني لعصر الأنوار إلى فلسفة القوة في عصر العولمة الأميركية - يشكل العمود الفقري للدراسات التاريخية الشمولية في عصر العولمة. فهناك مخاطر جديدة في انحراف التاريخ العالمي إلى تاريخ معولم. وخلال الحرب الأميركية على العراق في ربيع ٢٠٠٣م، برز سجال نظري بالغ الأهمية حول ما بقي من "أوروبا القديمة"، ومقولات عصر التنوير في مواجهة أميركا الجديدة و"فلسفة القوة". إلا أن الغاية الأساسية لهذا البحث أنه - ومن خلال المسيرة المشار إليها أعلاه للتاريخ العالمي- يحاول تقديم أجوبة عقلانية على السؤال المنهجي التالي: أين عرب اليوم، وإشكاليات الوعي العربي من مسيرة التاريخ العالمي لحظة تحوله إلى تاريخ معولم أميركيا بعد أن باتوا أُولى ضحاياه؟.

إشكالية التاريخ الحافز كقاعدة لنهضة عربية جديدة: قراءة تاريخانية

انطلقت إشكاليات الوعي التاريخي العربي في عصر النهضة من مقولة علمية ترى أن الرؤية العلمية المعاصرة للتاريخ العربي لا تعني استحضار ماضي العرب الذهبي لتوظيفه في الزمن الراهن، أي في زمن غير زمانه، بل تعني حاجة عرب اليوم إلى الاستفادة من دروس التاريخ العالمي، وبناء مشروع نهضوي بمواصفات عصرية جديدة، يؤسس لدور فاعل للأمة العربية في مسيرة التاريخ الكوني.

على قاعدة هذه المنهجية التاريخانية، لا تستقيم الرؤية المعاصرة لدور إشكاليات الوعي القومي العربي بتاريخ العرب الحديث والمعاصر، وتحديدا منذ تجربة النهضة العربية التي أطلقها محمد علي باشا، في مصر وبلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إلا بتقديم دراسات علمية جادة للإجابة على عدد من التساؤلات حول مستقبل العرب ودورهم شرط تجديد نهضتهم المتوقفة منذ قرنين من الزمن. وأبرز تلك التساؤلات: هل يمكن

استحضار ماضي العرب الذهبي لتوظيفه في الزمن العربي الراهن حيث تبدو الأنظمة العربية عاجزة عن مواجهة التحديات الكبرى التي تواجهها، وبشكل خاص التحدي الصهيوني المتحالف مع نزعة أميركية إمبريالية للسيطرة على النظام العالمي الجديد؟.

إن قراءة متأنية للظروف التاريخية التي عاشها العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى تظهر أنهم كانوا موزعين ضمن ولايات مفككة وتابعة للحكم العثماني الضعيف، ثم أخضعوا قسريا، وبشكل تدريجي، للاستعمار الأوروبي المباشر الذي أكمل سيطرته على الغالبية الساحقة من الأراضي العربية في فترة ما بين الحربين العالميتين.

لكن الشعوب العربية ناضلت بشدة ضد قوى السيطرة العثمانية، والاستعمار الأوروبي معا، وذلك على هدي مقولة التاريخ الحافز لأمة عربية لعبت دوراً بارزاً ومعترفاً به في التاريخ العالمي، وكانت لها إسهامات كبيرة في تراث الحضارة الإنسانية الكونية. ومن ثم فمن حق هذه الأمة أن تستحضر تاريخها المجيد، ورموزها التاريخانية، لكي تواجه تحديات مصيرية في مختلف الحقب. وهي تخوض الآن معارك تحررية للحفاظ على تاريخ حافل بالانتصارات، يشكل حافزا لها على رفض الخضوع لأية قوة أجنبية، مهما طال زمن الاحتلال أو الهيمنة أو التبعية.

يحتل العرب موقعا استراتيجيا مهما بين القارات الثلاث: أوروبا، وآسيا، وأفريقيا. وتختزن أراضيهم موارد طبيعية بالغة الغنى، ولديها احتياطي كبير من النفط والغاز يعد الأول في العالم، وتشكل مدنهم أسواقا كبيرة لتصريف السلع الأوروبية، ولتوظيف قسم مهم من فائض رساميلها في عمليات تجارية مربحة. تعرضت غالبية الأراضي العربية، منذ مطلع القرن التاسع عشر، لغزو أوروبي استعماري، وبأشكال مختلفة، أدى إلى سقوطها تباعا تحت السيطرة الأوروبية، بأسماء متعددة كالاحتلال والحماية والوصاية والانتداب.

وفي المقابل تشكلت الدول الحديثة في القارة الأوروبية على أساس مكوناتها القومية التي تبنت نمط إنتاج رأسماليا ليبراليا في المجال الاقتصادي، وديمقراطية علمانية في المجال السياسي. وبعد القيام بثورة صناعية ناجحة تحولت بعض الدول الأوروبية المتطورة في القرن التاسع عشر، إلى دول استعمارية عملت على توحيد السوق العالمية بالقوة والسيطرة على المواد الخام، ومصادر الطاقة في العالم كله.

نتيجة لذلك باتت السلطنة العثمانية، وولاياتها العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر، وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عرضة لهجوم استعماري أوروبي مكثف أدى إلى تفككها وانهيارها. وتزامنت تلك الفترة مع ولادة نهضة عربية مأزومة بسبب هزيمة محمد علي باشا، ومشروعه الإصلاحي، وانكفائه إلى داخل حدود مصر ليحكمها بالوراثة. وقد وجه مؤرخو عصر النهضة سيلا من الأسئلة المنهجية لتحليل المقولات النظرية التي صاغها النهضويون العرب الأوائل، وتفرعت عنها مقولات نظرية على مختلف الصعد السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية وغيرها.

لعل أبرز المخاطر التي شهدها التاريخ العربي في عصر النهضة تجلت بسقوط مناطق عربية في دائرة المشروع الاستيطاني الصهيوني المباشر على فلسطين. وقد تأثرت به بشكل أو بآخر، جميع الدول العربية، قبل الاستقلال وبعده. فهو بالدرجة الأولى مشروع استعماري يهدف إلى منع قيام الوحدة القومية العربية بمختلف السبل، وقد أنهك موازنات جميع الدول العربية طوال القرن العشرين. ولم تعجز القيادات العربية فقط عن تحرير فلسطين، بل كانت شاهدا على خسارة أراض عربية إضافية، وتكبيل إسرائيل لإرادة الشعوب العربية، وتبديد موارد العرب الطبيعية وإلحاقهم تبعيا بالأميركيين.

هناك إذن هواجس منهجية ثابتة رافقت عمل من أسهموا في التأريخ للنهضة العربية منذ بداياتها المتعثرة زمن محمد علي في مصر ووصولا إلى الهزائم القومية المتلاحقة بعد قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م. فحقل الكتابة

التاريخية بالغ الاتساع وشديد التنوع، لكن مجابهة المشروع الصهيوني الإمبريالي في الوطن العربي تُشَكِّلُ العمود الفقري في كتابات جميع المؤرخين الذين تناولوا موقع التاريخ العربي في مسيرة التاريخ العالمي. ونشرت دراسات علمية كثيرة تظهر حركية الواقع القومي العربي، بجميع أبعادها التاريخية، وبناها الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية وغيرها. وقد تبلورت من خلالها الفرضيات العلمية التي أطلقها المؤرخون العربي لتحليل أولويات وآليات النظام العربي في جميع دوله، واستخراج الدروس والعبر منه، وتقديم الحلول العلمية لمشكلاته المستقبلية المرتقبة، وتغييره نحو الأفضل.

تنطلق تلك الحركية من الحرص على إبراز القضايا الكبرى وما يرتبط بها من مشكلات فرعية على أساس الزمن التاريخي الطويل، حيث تتكامل فيه تجليات الحدث التاريخي بجميع أبعاده. فدراسة التاريخ من خلال الزمن الطويل تظهر قدرة الشعوب الحية على الممانعة، والصمود، ومواجهة التحديات الكبرى. فالشعوب الحية ترفض التبعية، وتصر على إقامة تفاعل حر من موقع النِّدِّيةّ مع الشعوب الأخرى. أما الشعوب العاجزة عن "التحدي والاستجابة"، فتفقد قدرتها على حماية تراثها وحاضرها معا.

يعيش عرب اليوم عصر عولمة شرسة ذات توجهات سياسية تؤكد على حتمية السيطرة الأميركية على العالم. لكنها سيطرة مشكوك فيها بسبب تنامي الصراعات على المستوى الكوني، وعجز دولة واحدة عن قيادة عالم مملوء بتناقضات متفجرة تهدد بحرب عالمية ثالثة. فحركة التاريخ العالمي سيرورة مستمرة. وهي تفسر صعود إيديولوجيات معينة في بعض المراحل التاريخية وانهيارها في مراحل أخرى.

ولنا في تجارب النازية، والفاشية، ومختلف الديكتاتوريات العسكرية، والأنظمة الشمولية- خير برهان على مصداقية هذه المقولة. حركة التاريخ إذن لا نهاية لها ولا حدود لاحتمالاتها المستقبلية. وما ينطبق على حركة التاريخ بشكل عام ينطبق أيضا على تاريخ الأمم ذات الحضارات

العريقة، ومنها التاريخ العربي في تحولاته الدائمة، وهنا بالذات تكمن أهمية تحليل الأزمة التي تعانيها الأنظمة العربية الراهنة والناجم عن جهلها العميق لأولويات حركية التاريخ العالمي في عصر التبدلات الكونية المتسارعة

أولا: إشكاليات الوعي العربي بالتاريخ العالمي في ظل الدول المستقلة

بعد قرون طويلة من الخضوع لقوى خارجية، وجد العرب أنفسهم في مواجهة عصر تبحث فيه كل قارة عن شخصيتها، وتوحيد ثقافاتها، وإيجاد دور يليق بها في التاريخ العالمي. فقدمت أوروبا مثالا بارزا على هذا المسار الذي تحول إلى نموذج يحتذى في العالم كله للتوحيد القاري على أسس ديمقراطية سليمة، وبشكل تدريجي على المدى الزمني الطويل. وقد تمحورت أسئلة المؤرخين العرب حول ضرورة تجديد النهضة العربية بعد ولوج جميع الدول العربية مرحلة الاستقلال السياسي، باستثناء فلسطين. وكانت تلك الأسئلة ذات طابع شمولي، تتجاوز دور الجماعات أو القُوَى المحلية داخل كل دولة عربية إلى ضرورة انخراط جميع الدول العربية في وحدة سياسية، واقتصادية، على أسس ديمقراطية سليمة بعيدة كل البعد عن كل أشكال القمع، وسيطرة الأخ الأكبر على الأخ الأصغر، أو قيام الوحدة العتيدة على أساس "الإقليم القاعدة"، الذي تلحق به قسريا جميع الدول العربية. فشرط التوحد القابل للحياة في زمن التكتلات الجغراسية الكبيرة على مستوى التاريخ العالمي هو الحرية والديمقراطية على المستوى السياسي، والليبرالية على المستوى الاقتصادي، والتنوع والانفتاح على المستوى الثقافي. واندرجت أسئلة المؤرخين العرب في عصر العولمة ضمن أطر منهجية قديمة - متجددة لأن أيا من مقولات عصر النهضة لم تطبق طوال مرحلة الاستقلال السياسي للدول العربية. أبرز تلك الأسئلة:

١ـ سؤال الهوية القومية، أو ما يعبر عنه في الغالب، بالتساؤل المنهجي: "من نحن؟"

حاول المؤرخون العرب من خلال طرح هذا السؤال المنهجي المتكرر

باستمرار توصيف موقع العرب، ودورهم في التاريخ العالمي. فهذه المسألة ما تزال تطرح بحدة، وتعيد صياغة سؤال الهوية القومية كمدخل لا غنى عنه لنهضة عربية جديدة طال انتظارها.ودخل العرب القرن الحادي والعشرين وهم في حالة من التفكك المقلق الذي يهدد حاضر العرب ومستقبلهم، بالإضافة إلى ماضيهم الذهبي.

سؤال الهوية القومية: أو "من نحن؟" ما زال إذن دون جواب لدى العرب، وعدد كبير من بلدان العالم الثالث. لكن منظِّري عصر العولمة يعتبرون أن الإحساس المفرط بالهوية القومية يشكل عائقاً أمام تحول العالم إلى وحدة كونية تبشر بها يوميا، وسائل الإعلام الغربية المتطورة. فهناك توكيد دائم على أن التاريخ الكوني أصبح حقيقة راهنة، كما أن فرص اندلاع حروب عالمية باتت شبه معدومة، لأنها تقود إلى تدمير الجنس البشري بأكمله. ومن ثم فالهوية الكونية، كما يقول منظرو عصر العولمة، هي المدخل الطبيعي للتاريخ الكوني الجديد، وشرطها الأساسي تجاوز جميع القوميات لعصبياتها التقليدية كالهوية القومية، والحدود الجغرافية، والخصوصية الثقافية، وغيرها. وهم يقدمون النموذج الأميركي كبرهان عملي على تغليب الانتماء إلى الدولة على غيره من الانتماءات القومية، والدينية، والعرقية، والثقافية، وغيرها من مشاعر الخصوصية التي ما زالت قوية في العالم الثالث. فالجنسية الأميركية تجمع شعوبا متباعدة في أصولها، وأديانها، وأعراقها، وانتمائها الإيديولوجي. وعبر هذه الجنسية التي ينشدها عدد كبير من سكان العالم نجح الأميركيون، حتى الآن، في بناء الدولة الأكثر نفوذا وحضورا في العالم.وهم يبشرون بتعميم النظام الليبرالي وتحويله إلى ركيزة أساسية لبناء النظام العالمي الجديد لتجاوز عصر القوميات، والأديان، والمنازعات العرقية، والأفكار الاشتراكية. لكن الدول التي أنجزت وحدتها القومية هي الوحيدة التي تستطيع الانخراط في النظام العالمي الجديد من موقع المشاركة في تحديد معالمه الأساسية كما يفعل الأوروبيون

والصينيون واليابانيون وغيرهم. أما الدول التي لم تنجز وحدتها القومية، وفي طليعتها الشعوب العربية، فما تزال أسيرة إحساس قوي بعصبيتها القومية. وفي عصر العولمة، أكثر من أية مرحلة سابقة، تشعر بالخوف من التبعية للقوى المهيمنة على النظام العالمي الجديد.

٢ـ سؤال الدولة القومية الواحدة والقيادة السياسية المتنورة

لدى العرب ومنذ القرن التاسع عشر، رغبة قوية في بناء دولة عربية واحدة انطلاقا من إيمان راسخ بوحدة اللغة، والدين، والثقافة، والتاريخ، والحضارة، وإرادة العيش المشترك. وزاد في إحساسهم بضرورة بناء تلك الدولة ما يواجهونه من التحديات الكبرى في جميع دولهم كالمشروع الاستيطاني الصهيوني، وفشل مشاريع التنمية القطرية، والخوف على الاستقلال والسيادة الوطنية في عصر التكتلات الجغراسية العملاقة.

لذا يشعر العرب اليوم بالضرورة الملحة لبناء الدولة القومية العربية الواحدة في عصر العولمة والشركات المالية والاقتصادية الاحتكارية العملاقة التي بلغت أقصى مداها في العقد الأخير من القرن العشرين، وباتت تشكل سمة بارزة من سمات القرن الحادي والعشرين. وما زاد في تعزيز هذا الاتجاه عند العرب هو ما آلت إليه حرب الخليج الثانية من تبديد للمال العربي وتحول جميع دولهم إلى دول مدينة. فالتنمية في الأقطار الصغيرة عرضة للتآكل من الداخل، ولتآمر التروستات المالية الدولية من الخارج. وبما أن عصر العولمة هو عصر التكتلات الضخمة في جميع المجالات، فعبثا تحاول الدول الصغيرة الحفاظ على مستوى مقبول من التنمية المستدامة ما لم تدخل في وحدات إقليمية كبيرة قادرة على مواجهة تحديات العولمة. وفي حين يرى بعض الباحثين أن المشروع النهضوي يمكن أن ينطلق من إيجابيات مرحلة الاستقلال والسيادة الوطنية، والتأسيس عليها لمواجهة تحديات عصر العولمة الأميركية، يرى آخرون أن الاستقلال السياسي لجميع الدول العربية بات الآن مهددا أكثر من أي وقت مضى بسبب تفكك نظام الإقليمية العربي، وغياب

التضامن بين أركانه على المستويين الإقليمي والدولي. وتبدو معظم الأنظمة العربية وحدودها الإقليمية اليوم غير مستقرة وعرضة للتغيير الجذري، سواء على مستوى القيادة السياسية أو على مستوى الحدود.

٣ـ سؤال الحرية والأنظمة الديمقراطية في الوطن العربي

الإنسان الحر هو حجر الزاوية في بناء التاريخ الإنساني، وقد حفل تاريخ العرب بقيادات متنورة بشرت بأن الناس يولدون أحرارا، وأن مصادرة الحرية أو الحد منها يشكل تعديا على كرامة الإنسان. لذا جعل كثير من النهضويين العرب الصراع من أجل الحرية في أعلى مرتبة، كما صنفوا نضال القائد الذي يقود شعبه لإجبار المستعمر على الاعتراف بحريته هو أرقى أشكال النضال. وبما أن جميع الدول العربية تشعر الآن بأن حدودها الدولية عرضة للتغيير في ظل نزعة عسكرية أميركية للسيطرة على العالم - فإن نضال العرب دفاعا عن حريتهم، واستقلالهم، وسيادة أراضيهم يشكل أعلى درجات الوعي بإشكالية موقع العرب في التاريخ العالمي. وذلك يتطلب الانتقال من مرحلة الحكم الفردي، والزعيم الملهم، والقائد الفذ، وشيخ القبيلة، والحزب القائد أو الطليعي إلى بناء الدولة الديمقراطية، وإطلاق جميع الحريات الشخصية والعامة، وإفساح المجال أمام مؤسسات المجتمع المدني لكي تلعب الدور الأساسي في بناء المشروع النهضوي العربي الجديد. وبما أن أيا من مقولات عصر النهضة العربية لم تنجز فستبقى أسئلة الحرية، والاستقلال، والوحدة، والتقدم، والتنمية الشمولية فاعلة بقوة إلى حين إنجاز المهمة القومية العربية الأساسية. وفي طليعتها تحرير الإنسان العربي، والأراضي والثروات العربية من الاحتلال الأجنبي، بأشكاله المختلفة وأدواته المتعددة.

٤- سؤال التقدم الذي صاغه المفكرون العرب على الشكل الآتي: "لماذا تأخر العرب وتقدم غيرهم؟"

رغم استعادة هذا السؤال بأشكال مختلفة منذ القرن التاسع عشر،

obeikandl.com

إلا أن الباحثين العرب لم يدرسوا بشكل معمق تجارب الشعوب الأخرى التي نجحت في نقل مجتمعاتها، وبسرعة قياسية، من التخلف المريع إلى التطور العلمي، والتقني، والاقتصادي، والاجتماعي. وأخص بالذكر هنا التقصير العربي الفادح في دراسة تجارب التحديث في كل من اليابان، و الصين، وكوريا، وغيرها من النمور الآسيوية. وهي تجارب تساعد العرب كثيرا على رسم استراتيجية نهضوية متحررة من قيود التشبه بالنماذج الأوروبية والأميركية.

لذا تبدو الحاجة ملحة إلى صياغة أسئلة الاستنهاض العربي في مجال التقدم انطلاقا من أن الشعب الحر هو مصدر كل السلطات، وأن العمل الجماعي قادر على فك الارتباط التبعي بالغرب الذي ما زال يجر العرب إلى مزيد من التخلف. واستمرار التبعية يقود حتما إلى فقدان الهوية والتراث والأصالة وغيرها من المفاهيم التي يعتبرها السلفيون شرطا أساسيا للحفاظ على الذات القومية انطلاقا من صيغ المقاومة السلبية، أو الممانعة لمشروع التغريب الوافد باسم الحداثة.

تجدر الإشارة هنا إلى أن دعاة التقدم في التجارب النهضوية الآسيوية اعتبروا أن دخول الحداثة من بابها الواسع، ودون مركبات نقص، مسار لا غنى عنه للحفاظ على التراث والأصالة والهوية القومية.

فسؤال التقدم هو نفسه سؤال الحداثة السليمة التي تقود إلى التنمية الثقافية والإبداع الحضاري المستمر.

لكن ما حققه العرب من منجزات في مرحلة الاستقلال، على أهميتها الاستراتيجية، لم تعد كافية لمواجهة التحولات الكبرى التي يشهدها العالم على مشارف القرن الحادي والعشرين. وذلك يتطلب وضع مخطط شامل لاستيعاب الإنجازات العلمية والتكنولوجية المتطورة التي تنشرها مراكز أبحاث علمية توظف لها الدول المتطورة نسبة كبيرة من موازناتها السنوية من

obeikandi.com

جهة ومشاركتهم الفاعلة في الثورات العلمية والتقدم التكنولوجي من جهة ثانية.

٥- سؤال التنمية الاجتماعية والرخاء الاقتصادي

تمت صياغة هذا السؤال بأشكال مختلفة ومتناقضة. فالإجابة العلمية على سؤال التنمية البشرية، والاقتصادية، المستدامة تتطلب أعلى درجات التخطيط الطويل الأمد، والمقرون بتضحيات كبيرة لمواجهة مشكلات تنامي الأمية، والفقر، والبطالة، والمجاعة، والتصحر، وغيرها في الوطن العربي. وقد أكد معظم الاقتصاديين العرب أن مشاريع التنمية في كل قطر عربي على حدة انتهت بأزمات حادة دون أن تؤدي إلى تحقيق تنمية عربية شاملة. وفي المقابل، يرى كثير منهم أن مشاريع التكامل الاقتصادي والتنمية الشمولية بين جميع الدول العربية تأتي تتويجاً للجهود المشتركة بين هذه الدول بعد إرساء البنى التحتية العصرية فيها، وتأهيل الكوادر البشرية للارتقاء بالتنمية القطرية من أطرها المحلية إلى التنمية القومية الشمولية ذات القدرة على مجابهة التحديات الإقليمية والدولية في عصر التكتلات المالية، والاقتصادية التسلطية العملاقة. وانطلاقا من سؤال التنمية البشرية والاقتصادية المستدامة، يمكن توصيف السمات الأساسية للنهضة القادمة بأنها حركة تنموية ذات أبعاد شمولية لتجاوز الموروث السلبي لمراحل مزمنة من التخلف أو التأخر المريع الذي عاشته المجتمعات العربية طوال القرون السابقة. فمنذ انطلاقة النهضة الأولى شهدت المجتمعات العربية تبدلات جذرية على مختلف الصعد الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية.

فالمكتسبات الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، التي تحققت في ظل الدولة العربية الحديثة هي الآن عرضة للتآكل في جميع المجالات. ولم تنجح الدول العربية في بناء مشروع اقتصادي، أو ثقافي واحد يتمتع فيه بشهرة عالمية، وذلك رغم الأموال النفطية الطائلة التي حصلوا عليها، وبددت حرب الخليج معظم مدخراتها.

يكفي التذكير بأن ما توظفه إسرائيل في مشاريع البحث العلمي يفوق عدة أضعاف ما توظفه الدول العربية مجتمعةً في هذا المجال. كما أن قسما كبيرا من موازنة مراكز الأبحاث العربية، وهي قليلة العدد ومعظمها لا يستحق هذه الصفة، يصرف على الرواتب والتجهيزات التي تعتبر بدائية إذا ما قورنت بالتجهيزات الحديثة في مراكز أبحاث متطورة. كما أن أعدادا كبيرة من الأدمغة العربية تلتحق سنويا بمراكز الأبحاث الدولية وتعمل لحسابها، في حين يفتقر البحث العلمي في الوطن العربي إلى شروط ضرورية ولا غنى عنها، لمواجهة عصر التبدلات العلمية، والتكنولوجية، والإعلامية المتسارعة. وما لم يبذل العرب جهودا مضاعفة فمن الصعب عليهم اللحاق بركب الدول المتطورة في هذا المجال.

نخلص إلى القول بأن إشكاليات الوعي العربي بالتاريخ العالمي في ظل الدول المستقلة باتت عاجزة عن مواجهة إشكاليات وتحديات عصر العولمة. فالمقولات السياسية والثقافية والتنموية العربية كانت أسيرة الوعي المشوه بضرورة استحضار "الماضي الذهبي للتاريخ العربي". فهي مقولات ماضوية لا تُسهم في توليد إشكاليات جديدة لأنها تشدد، وبشكل أساسي، على الأسئلة الإيديولوجية: "من نحن؟"، و"لماذا تأخر العرب وتقدم غيرهم؟" و"من هو البطل الذي يقود النهضة العربية؟"، وغيرها. ولا بد من الانفتاح الكامل على أسئلة الحرية، والديمقراطية، والتنمية المستدامة، والعلوم العصرية، والتكنولوجيا المتطورة، وغيرها. ولنا في مثال اليابان، والصين، ومجموعة النمور الآسيوية، والهند نماذج بالغة الدلالة على ضرورة الاستمرار في عملية التطور الذاتي لمواجهة التحديات المصيرية لعصر العولمة. فقد واجه مصلحو تلك الأمم بشجاعة أوضاعا مشابهة لأوضاع العرب عند مواجهة التحدي الغربي منذ القرن التاسع عشر.

إلا أنهم لم يكتفوا بالدعوة إلى الحفاظ على الهوية القومية، والتراث الحضاري، والتغني بأمجاد الماضي الذهبي، ورفض مصلحوهم وضع الأصالة

في مواجهة الحداثة.كما رفضوا التصدي للغرب بأسلوب الممانعة، بل وضعوا استراتيجية واضحة وطويلة الأمد لتطوير مجتمعاتهم وجعلها قادرة على التحدي الحضاري من موقع الندية. ورفع الإمبراطور الياباني "مايجي"، رائد النهضة اليابانية الأولى في القرن التاسع عشر، الشعار التالي: "الحقوا بالغرب وتجاوزوه". وبعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية، نجح اليابانيون في تحويل تاريخهم الحضاري إلى تاريخ حافز لبناء نهضة عصرية تفوق في أهميتها النهضة التي بنوها في السابق. ولعبت العلوم العصرية، والتنمية البشرية المستدامة، والبحث العلمي، والإنتاج التكنولوجي المتطور دورا أساسيا في تحصين المجتمع الياباني، وجعله قادرا على مواجهة تحديات عصر العولمة.

وجسد الشعب الياباني، ومعه شعوب الصين، والنمور الآسيوية، نماذج جديرة بالدراسة حول أهمية العمل الجماعي، في الحفاظ على هوياتهم القومية. واعترف العالم كله بخصوصية ثقافاتهم الآسيوية التي جمعت ما بين الأصالة، والحداثة بشكل رائع، وجعلت بلدا كاليابان يتحول بسرعة من بلد مدمر، وشعب جائع في نهاية الحرب العالمية الثانية إلى بلد من أغنى بلدان العالم، وفي طليعة القوى العالمية العظمى بفضل تطورها الصناعي، والاقتصادي، والتكنولوجي، والعلمي.

ثانيا: إشكاليات الوعي التاريخي العربي بمسيرة التاريخ العالمي في عصر العولمة

تتطلب إشكاليات الوعي العربي بالتاريخ العالمي قيام نهضة عربية على أسس جديدة تتلاءم مع طبيعة عصر العولمة، وتحدياتها. وفي طليعة تلك الأسس بروز أحزاب سياسية تمارس الديمقراطية بشكل سليم، وتعزز دور المؤسسات التي تفرز قيادات متنورة من نوع جديد، تؤمن بثقافة التغيير الجذري من حيث هي فعل إيمان بقدرة الذات العربية على التجدد، وتتجاوز نفسها باستمرار نحو مراتب أكثر تقدما.

لقد بنيت المرجعية النظرية لإشكاليات الوعي العربي بالتاريخ العالمي

أولا، وبشكل طوباوي، على ضرورة توليد قيادات عربية متنورة تطلق حملة واسعة لتعميم البحث العلمي، ونشر العلوم العصرية، وتوطين التكنولوجيا المتطورة. فتتكامل بذلك عناصر التغيير الجذري للمجتمعات العربية، وعلى مختلف الصعد. لكن تلك المرجعية لا تكتسب مصداقيتها على أرض الواقع إلا إذا نجحت في تغيير ذهنية الإنسان العربي الذي كاد يفقد ثقته بنفسه بعد الهزائم المتلاحقة التي حلت به طوال القرنين المنصرمين.

وغني عن التذكير أن إعادة الثقة بالنفس لا تتم بالمواعظ والخطب، بل بالإصلاح الجذري للمجتمعات العربية، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، والاستفادة من الموارد الطبيعية، والمالية الهائلة لبلورة استراتيجية قومية طويلة الأمد تؤسس لوحدة عربية ذات ركائز ديمقراطية، وعقلانية، وليبرالية، واحترام الحقوق الأساسية للإنسان العربي.

في المقابل دلت تجارب التحديث الناجحة في جميع دول العالم على أن عملية الارتقاء بالشعوب إلى مرحلة التاريخ الكوني الحضاري ليست نتاجا فوقيا لقيادات سياسية متنورة بل تتطلب إطلاق نهضة شاملة، وعلى جميع الصعد، تعيد للشعوب العربية موقعها الفاعل في بلدانها أولا، وفي محيطها الإقليمي ثانيا، والمشاركة في بناء التاريخ العالمي على أساس من التفاعل الحر بين جميع شعوب العالم ثالثا.

وما تحتاجه الشعوب العربية للدخول في التاريخ العالمي من موقع الفاعل فيه لا يقتصر على مجموعة قيادات سياسية متنورة فحسب بل أيضا مؤسسات سياسية، واقتصادية، وثقافية، ومراكز أبحاث عملية قادرة على توليد ثقافة عصرية تسهم في التغيير الجذري وتمهد لولادة إنسان عربي حر، وقادر على إطلاق نهضة عربية جديدة لمواجهة تحديات عصر العولمة. ومن العبث أن يستمر عرب اليوم في البحث عن قائد فذ يعيد للعرب دورهم التاريخي المفقود طالما أن مصير الأمة العربية كلها عرضة للضياع على مشارف القرن الحادي والعشرين. فالمشروع النهضوي العربي في عصر العولمة

obeikandi.com

يحتاج إذن إلى مقولات جديدة تتجاوز دور الفرد إلى دور المؤسسات والدول. ويتطلب تنفيذه تكامل الحلقات الثلاث التي تعتبر ركائز ضرورية لنجاحه، وهي: المثقف العربي الحر، والمزود بعلوم عصرية، والمؤسسات الثقافية، والمالية القومية العربية التي ترعى الإبداع العربي على أنواعه وتساهم في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، والقيادة السياسية المتنورة، والعاملة على بناء مشروع نهضوي جديد انطلاقا من التاريخ الحافز لأمة عربية ذات ماض ذهبي، وأنتجت حضارة إنسانية كونية. لذا، فاستعادة دور العرب الفاعل في عصر العولمة والتاريخ الكوني العالمي المعاصر تفترض بالضرورة إعادة نظر منهجية في إشكاليات الوعي التاريخي العربي، وبشكل خاص مقولة "البطل القومي العربي المنقذ للأمة". فإشكاليات عصر العولمة تختلف جذريا عما كانت عليه في زمن الفتوحات الإسلامية الأولى، كما أنها تتجاوز مفاهيم الفرد البارز، أو القائد الفذ الملهم، أو المستبد العادل، إلى تكامل دور القيادات والمؤسسات والجماعات والشعوب. وليس من شك في أن استعادة العرب لموقع جديد فاعل في التاريخ العالمي يتطلب إنجاز بعض الأهداف الملحة التي لا يستقيم مسار التاريخ العربي بدونها، وفي طليعتها بناء الوحدة العربية كحاجة ملحة في عصر التكتلات الجغراسية والقارية الكبيرة. فالدول الصغيرة، الغنية منها والفقيرة على حد سواء، غير قادرة على حماية سكانها في زمن السلم كما في زمن الحرب.

كما أنها عرضة لمضاربات مالية تقوم بها الاحتكارات، والمؤسسات المالية الكبرى. وبعد أن تَهَرَّبَ قادة العرب طويلا من موجبات بناء الدولة القومية الواحدة والموحدة - فقد أصبحوا اليوم محكومين، أكثر من أي وقت مضى، بقانون التوحيد الجغراسي الذي يشكل السمة البارزة في عصر العولمة، مع موجبات اختيار الشكل الأفضل للدولة الاتحادية.

نخلص إلى القول بأن الفكر التاريخي العربي في المرحلة الراهنة من عصر العولمة يواجه إشكاليات لا حصر لها، وهي تطول ماضي العرب،

obeikandl.com

وحاضرهم ومستقبلهم في آن واحد. ونظرا لصعوبة الإحاطة بجميع تلك الإشكاليات، فسنكتفي هنا بتحليل أبرزها:

١ـ إشكالية الخروج من الاقتباس السهل لمقولات الغرب الثقافية

اعتمد الفكر العربي منذ عصر النهضة، أسلوب رد الفعل ضد الهجمة الأوروبية، والأميركية الطاغية طوال القرنين التاسع عشر والعشرين.لكن العرب فشلوا في بناء وحدتهم القومية، واكتفوا بتحصين أنظمتهم القطرية التي تتعرض الآن لخطر التدمير من جانب القوة الأميركية الزاحفة على المنطقة. مرد ذلك إلى أن القيادات العربية المسيطرة قد اكتفت بالاقتباس السهل لكثير من مقولات الفكر الغربي، وأعادت توظيفها ضد القوى العربية الحية والمناهضة للغرب. هذا في وقت تحول فيه النقاش بين المثقفين العرب إلى جدل عقيم حول مادية الغرب العلماني في مواجهة روحانية الشرق المتدين. وقد صرف معظم المثقفين العرب جهودا مضنية للمصالحة بين الدين كتراث ثابت، والعلم كمقولات متحركة باستمرار. وسقط قسم كبير منهم في أوهام مقولة " تجسير الفجوة "، بين ثقافة التغيير والسلطة القمعية. علما أن جوهر المسألة أبعد ما يكون عن إيجاد تصالح بين العلم والدين بل في كيفية إدخال العلم إلى المجتمعات العربية، وتحويله إلى عنصر فاعل في تطويرها. وليست هناك حاجة أصلا لإيجاد تصالح بين ثقافة التغيير، والسلطة القمعية، بل التركيز على الاستخدام العقلاني للثقافة من أجل حماية المجتمع، وليس للدفاع عن الممارسات القمعية للنظام السياسي. فغاية ثقافة التحديث هي الوصول إلى مجتمع الحداثة المتطورة باستمرار لأنها سيرورة لا تتوقف تقود كل مرحلة إلى أرقى منها. وليست الحداثة محطة تاريخية بل تحولات مستمرة في جوانب الحياة كافة.

بعد أن تحول التحديث العربي إلى عملية تغريب برز عبء جديد تمثل في إضافة المزيد من الأزمات على مختلف الصعد. وفشلت المجتمعات العربية في بناء حداثة مكتملة أو محققة لا يمكن الارتداد عليها في أي من الدول

obeikandl.com

العربية المستقلة طوال النصف الثاني من القرن العشرين بأكمله. وأعاد كثير من المثقفين العرب طرح أسئلة منهجية ذات أهمية استثنائية أبرزها: إلى متى يستمر العرب في الاقتباس السهل للعلوم، والتكنولوجيا الغربية دون الاستفادة منها وتوطينها، والإبداع فيها؟ وإلى متى يتجاهل العرب أهم المقولات النظرية التي ترى أن غاية التحديث لا تكتمل إلا في تحقيق ذاتها بالتحول إلى حداثة قادرة على تطوير المجتمعات العربية من داخلها، وذلك بالاستناد إلى القوى الحية الفاعلة فيها، ودون الانغلاق على الذات أو رفض التفاعل الإيجابي مع ثقافات الغير؟

لقد تأخر العرب في دخول عصر العولمة عبر مؤسسات ثقافية ذات توجه شمولي للمشاركة في الثقافة الكونية من موقع الفعل وليس رد الفعل. كما أن غياب العمل الجماعي، ومعه غياب التفكير النقدي عن الجامعات، والمؤسسات الثقافية، والإعلامية العربية، كل ذلك قاد إلى كارثة حقيقية على مستوى الإبداع الثقافي.

وتبرز لوحة المشهد الثقافي العربي في المرحلة الراهنة أن الجيل الجديد من المثقفين العرب منصرف بشكل شبه تام عن الإنتاج الثقافي العربي في مختلف المجالات، بدءا من الإنتاج العلمي الهزيل في الرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، والفلك، والطب، والهندسة، والصيدلة، ووصولاً إلى البحث التاريخي والرواية، والمسرح، والشعر، والفنون، والموسيقى وغيرها. هناك أزمات واضحة لا حصر لها في المشهد الثقافي العربي بكامل دوله. ومن أبرز تجليات ذلك المشهد زيادة نسبة الأمية في جميع الدول العربية، وتراجع الاهتمام بالكتاب، والمسرح، والفنون، ومختلف أشكال الإبداع. وهناك ميل متزايد لتجاهل الإنتاج الثقافي العربي في أوساط الجيل الجديد من الشباب، مع ميل واضح لتراجع صحافة النقد مقابل حضور كثيف لثقافة الترفيه، والأخبار، والتنظير والتعميم والتسطيح.

ولعل أبرز معضلات المشهد الثقافي في الوطن العربي اليوم أن مساحة

الرأي الناقد تتقلص يوما بعد يومٍ، في حين أن الحياة الثقافية لا تستقيم أبدا إلا بحضور فاعل لهذا الرأي لأنه الحاضن الوحيد لكل أشكال الاجتهاد، والإبداع، والتنوع، فوجود الرأي الناقد أمر ضروري جدا في كل حياة ثقافية، وبه تدق أبواب الحرية والتغيير.الإبداع فردي بطبيعته، لكن الاستفادة من ثمراته لا يمكن إلا أن يكون جماعيا، وإلا عزل المبدعون عن دائرة التأثير في المجتمع. وإذا كانت المركزية مرفوضة تماما في مجال العمل الثقافي الإبداعي فإن دعم المؤسسات الثقافية الشمولية أمر غاية في الأهمية، ولا يستقيم نشر الثقافة بدونه.

وتحتاج الثقافة إلى تراكم طويل الأمد حتى تعطي ثمارها اليانعة بعد صراع تفاعلي بين التيارات المختلفة في داخلها. فليس المطلوب إذن قمع الصراع بين المقولات الثقافية المتناقضة بل الارتقاء به نحو مرحلة أرقى من التفاعل الإيجابي البنّاء على قاعدة الحوار، واحترام الرأي الآخر، وتعزيز دور القيم الثقافية في المجتمعات العربية. فحداثة الغرب هي نتاج تطوره الاقتصادي، والسياسي، والثقافي، والاجتماعي. وقد أدى اقتباس مقولات الحداثة وفرضها أو تعميمها طوعا دون نقد لسلبياتها على مجتمعات أخرى كالمجتمعات العربية التغريب التام وليس إلى التحديث كما توهم العرب.

٢ـ إشكالية موقع العرب في النظام العالمي الجديد

يشعر عرب اليوم ومعهم جميع دول الأطراف، بأنهم يتعرضون لتهميش متزايد على المستويات كافة. ويحس المواطن العربي باغتراب شبه تام عن الواقع الذي يعيش فيه. وزاد في مأزق العرب في المرحلة الراهنة للعولمة المنتصرة ما ظهر جليا طوال العقود المنصرمة من تجاهل ملحوظ للثقافة العربية، وللغة العربية، ولمراكز البحث العلمي شبه الغائبة أو المغيبة عن الفعل الثقافي على امتداد العالم العربي. فهناك هزال حقيقي في الإنتاج الثقافي المنشور باللغة العربية لدرجة بات معها التداول اليومي بالتراث العربي شبه معدوم على المستوى العالمي. هذا في وقت يتحول فيه العرب إلى كتلة بشرية

تقاس بتراكم كمي يزداد سنويا بالملايين.

وبعد الغزو الأميركي السهل للعراق في ربيع عام ٢٠٠٣م، تأكدت دول العالم وشعوبها، أن العرب يعيشون خيبة مريرة في تاريخهم المعاصر بعد أن داهمهم التاريخ الكوني وهم ما زالوا أسرى مقولات ماضوية من جهة، وقيادات سياسية متناحرة أبعدتهم عن مواجهة مشكلات الحاضر، ومتطلبات بناء غد أفضل للعرب في التاريخ العالمي يتلاءم مع طاقاتهم البشرية، ومواردهم الطبيعية الوفيرة. فركون النظام الإقليمي العربي للدعوة إلى تطبيق القوانين، والقرارات الدولية بشكل عادل، وحل المنازعات بالقوة العسكرية الدولية، لم يعد أمرا ميسورا في زمن غطرسة القوة الأميركية.

٣ـ إشكالية بناء حداثة سليمة تتلاءم مع طبيعة عصر العولمة

لقد آن الأوان لخروج العرب من إشكالية خادعة تقول بالاستفادة السريعة من تقدم التكنولوجيا، والعلوم العصرية مقابل رفض دائم وثابت للمقولات العقلانية، والليبرالية التي أنتجت تلك التكنولوجيا عبر تقدم العلوم العصرية في مختلف دول العالم. فقد دلت تجارب اليابان، والنمور الآسيوية، والصين، والهند أنه بإمكان المشروع النهضوي العربي الجديد أن يقيم التوازن ما بين ثمرات التقدم العلمي، والتكنولوجي، ورفض المقولات السلبية التي ترافق عملية الاقتباس السهل التي تزيد من تخلف المجتمعات العربية.

وذلك يتطلب التمسك بكل ما هو إيجابي في الثقافة العربية والثقافات الإنسانية، والتطلع إلى مستقبل البشرية بنظرة حضارية، وأكثر إنسانية تحمي التراث والأصالة دون أن تقطع الطريق على الحداثة السليمة عبر ثورات متعاقبة للعلوم العصرية والتطور التكنولوجي.

٤ـ إشكالية حوار العرب غير المتكافئ مع الغرب بسبب غياب شروط الندية

غني عن التذكير أن الغرب متعدد وليس موحدا، والأنظمة العربية كذلك. وبما أن مقولات الغرب الثقافية متعددة، فالعرب لا يرفضونها أو

يقبلونها بشكل كامل بل يرفضون منها كل ما يقدم الغرب على صورة مستعمر يحاول فرض ثقافته المادية، أو نزعته الإباحية عليهم، أو حين ينحاز بالكامل إلى جانب المشروع الصهيوني متجاهلا شعاراته السابقة عن الحرية، والإخاء، والديمقراطية، والعدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان العربي. لا بد للعرب إذن من الحوار مع الغرب، بجناحيه الأوروبي والأميركي، ومن موقع الندية أولا، وعدم الخوف من العولمة تحت ستار أنها لا تقيم أي وزن للعرب بل تعتبرهم كما بشريا، وطاقات وموارد طبيعية يجب توظيفها في خدمة الغرب المتفوق، والساعي للسيطرة على العالم بكل الوسائل المتاحة.

هناك إمكانيات هائلة لدى العرب يمكن توظيفها لدخولهم عصر العولمة من باب الفاعل فيه، وليس المتلقي لسلبياته. وهذا ما فعلته اليابان، والصين، والهند، ودول النمور الآسيوية وغيرها. لكن النظام السياسي العربي ما زال مصرا على سياسة الاقتباس السهل من جهة، ويتخفى وراء ممانعة شكلية غير مجدية من جهة أخرى.

كذلك حلت المركزية الأميركية مكان المركزية الأوروبية السابقة، وتم استقطاب رساميل العالم وأدمغته طوال القرن العشرين. وأفرغت كثير من دول العالم، خاصة العربية منها، من طاقاتها المادية، والإبداعية، فأحدث ذلك خللا حادا يهدد بانفجارات لا حصر لها في القرن الحادي والعشرين.

والواقع الملتبس في علاقة العرب بإشكاليات الغرب، بجناحيه الأوروبي والأميركي، يثير لديهم مشاعر متناقضة عن الحرية والقمع الديمقراطية، والديكتاتورية، و الإخاء أو التسامح والعنصرية القاتلة. لا بد من قراءة نقدية مستمرة لعلاقة المجتمعات العربية بالغرب، مع سعي حثيث لتجاوز الإشكاليات السائدة التي ولدتها مدارس الإستشراق الغربي عبر صورة مشوهة عن العرب. لكن الارتقاء الإشكاليات العربية فعلا إلى مستوى إقامة حوار حقيقي من موقع الندية مع الغرب يتطلب أولا الارتقاء بالمجتمعات

العربية نفسها إلى مستوى يتلاءم مع طبيعة عصر العولمة، والقدرة على مواجهة سلبياتها الكبيرة.

ومن أولى واجبات المثقفين العرب في المرحلة الراهنة توليد إشكاليات علمية، رصينة ودقيقة، لحماية مصالح العرب العليا، والمشاركة في بناء نظام عالمي جديد بعيد كل البعد عن نزعات الهيمنة الثقافية، والتسلط العسكري، والشوفينية أو الاستعلاء العنصري. وذلك يتطلب - وبالدرجة الأولى- التأسيس على إيجابيات عصر النهضة، والإشكاليات المهمة التي أطلقها مثقفو تلك المرحلة كالحرية، والديموقراطية، والمواطنة، والنظم الدستورية، وحرية العمل الحزبي، والدور المهم لمؤسسات المجتمع المدني وغيرها.